﴿*وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ [الأنعام: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اقتداء النبيّ ﷺ بإبراهيم عليه السلام في إنكار الشّرك على أهله

لَمَّا تحدَّثتِ الآياتُ السَّابقةُ عن مواقفِ المشركين مِنَ الدَّعوة الإسلاميَّة وإعراضِهم عنها بعد أن جاءتهمُ الآياتُ الواضحاتُ البيّنات، لكنَّهم ظلُّوا على ضلالهم، وتمسُّكِهم بعبادةِ الأصنام الَّتي لا تنفعُ، ولا تضرُّ؛ لأنَّها لا تملكُ من أمرِ نفسِها شيئًا حتَّى تملكَ من أمرِ غيرها، وسجَّل القرآنُ ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: 71].

جاءتْ هذه الآيةُ لتُبيِّن أنَّ ما فعلَه رسولُ الله ﷺ هو مُقتَدٍ فيه بأبي الأنبياء: إبراهيمَ عليه السلام حيثُ أنكرَ عبادةَ الأصنامِ، وعدَّها ضلالًا مبينًا، وظهر ذلك في خطابِهِ لأبيهِ مستنكِرًا عبادتَهُ إيَّاها، ووصفَهُ وقومَهُ بالضَّلالِ المبينِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَازَرَ﴾: أَبُو إبراهيمَ عليه السلام؛ وهو اسْمٌ أَعجميٌّ يدلُّ على ذَمٍّ في لغتهم، ومعناه: الخاطِئ الضَّالُّ والأعرج والخَرِفُ، أو تعني: كلمةَ زَجْرٍ ونَهيٍ عنِ الباطل، وقد ذَكَرَ النَّسَّابون أنَّ والدَ إبراهيم عليه السلام كان اسمه (تارخ) ليس بينهم اختلافٌ في ذلك، ثُمَّ عُرِّب، فجُعل آزر، فيكون (آزَرَ) لقبًا عن (تارَخَ)، وقيل: إنَّ (آزر): هو اسمُ عمٍّ إبراهيمَ عليه السلام وإنَّما سُمِّيَ العَمُّ أَبًا، جَرْيًا على عادةِ العَرَبِ في ذلك؛ لأَنَّهم كثيرًا مَا يُطلقُون الأَبَ على العَمِّ، والظَّاهرُ أنَّ (آزَرَ) و(تارَخَ) اسمان لَهُ، كإسرائيلَ ويعقوبَ[1].

(1) الرَّاغب، المفردات، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (آزَر)، والقرطبيُّ، تفسير القرطبيّ: 7/22.

2) ﴿أَصْنَامًا﴾: جمعُ صَنَم، وهو الصُّورةُ الَّتي تُعْبَدُ، وتُتَّخذُ إلهًا مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَا يُسمَّى صَنَمًا حَتَّى تكون لَهُ صُورَةٌ أَو جُثَّةٌ، وأصل (صنم): ما يُنْحَتُ من خَشبٍ، ويُصاغُ من فِضّةٍ أو نُحاسٍ أو حَدِيدٍ أَو حِجَارَة ونَحْوِ ذَلِك مِمَّا يُعبدُ[1].

3) ﴿مُّبِينٍ﴾: واضحٌ بَيِّنٌ ظاهرٌ، يقالُ: بانَ واستبان وتبيَّن، وأصلُ (بين) يدلُّ على انكشافٍ، يقالُ: بَانَ الشَّيْءُ، وَأَبَانَ؛ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ، ومنه البَيِّنَةُ، وهي الحجَّةُ الوَاضِحَةُ، وفلان أَبْيَنُ مِن فلانٍ، أَي: أَفْصَحُ مِنْهُ وأَوْضَحُ كَلامًا، والمعنى هنا: ضلالٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ صَحِيحٍ[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مُحاجَّةُ إبراهيم ﷺ لأبيه، وإنكارُه عليه عبادةَ غيرِ الله

بيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآية مُحاجَّةَ إبراهيم ﷺ لأبيه، وإنكارَهُ عليه عبادةَ غيرِ الله، بقوله: واذكر - أيُّها الرَّسولُ ﷺ - مُحاجَّة إبراهيم ﷺ لأبيه المشرك آزرَ؛ إذ قال له مُنكرًا عليه عبادةَ غيرِ اللهِ: أتجعلُ منَ الأصنام آلهةً تَعْبُدها من دون الله تعالى؟ إنِّي أراك وقومَكَ الذين يعبدون الأوثانَ في بُعْدٍ واضحٍ بَيِّنٍ عن طريق الحقِّ؛ بسبب عبادتِكم غيرَ الله، فهو سُبحانه المعبودُ بحقٍّ، وغيرُه معبودٌ بالباطل[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ ذكرِ قصَّةِ إبراهيمَ ﷺ دونَ غيرِه:

اختُصَّت هذه السُّورةُ بقصَّةِ سيِّدنا إبراهيمَ؛ لأنَّ التَّذكارَ بها مع

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (صمن)، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صنم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (بين)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/289.

(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 184، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير الميَسَّر، ص: 137، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

جميعُ الطَّوائفِ والمِلَلِ يَعْتَرِفُون بفضلِ إبراهيمَ عليه السلام

أبيه وقومِه أنسَبُ لرُجوعِ العَرَب إليه؛ إذ هو جَدُّهم الأعلى، فذُكِّروا بأنَّ إنكارَ هذا النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ عليكم عِبادَةَ الأصنامِ هو مِثْلُ إنكارِ جَدِّكم إبراهيمَ على أبيه وقَوْمِه عِبادَتَها، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾[1].

والنَّاظرُ في القرآنِ الكريم يجدُ أنَّ اللهَ سبحانه كثيرًا ما يحتجُّ على مشركي العربِ بأحوالِ إبراهيمَ عليه السلام؛ وذلك لأنَّه يَعْتَرِفُ بفضلِه جميعُ الطَّوائفِ والمِلَلِ، فالمشركون كانوا مُعترفين بفضلِه مُقرِّينَ بأنَّهُم من أولادِه، واليهودُ والنَّصارى والمسلمون كُلُّهُمْ مُعَظِّمون له مُعترفون بجلالةِ قدرِه، فتمَّم الاحتجاجَ عليهم بذكرِ محاجَّةِ إبراهيمَ لأبيهِ وقومِه[2].

ولمَّا كانت كلُّ أمورِ إبراهيمَ النُّسُكيَّةِ في مكَّة، ورفعُه للكعبةِ كان في هذا المكانِ - والكعبةُ هي مركزُ السِّيادةِ لقريشٍ؛ ولولا الكعبةُ لكانت قريشٌ كسائرِ القبائل - فأراد الحقُّ ﷻ أن يَدخُلَ إلى قلوبِهم بالحنانِ الَّذي يعرفونه لإبراهيمَ الَّذي هو سببُ هذا العزِّ وسببُ هذا الجاه والسِّيادة، فهُناك ارتباطاتٌ مُتعدِّدة؛ فأتى الحقُّ هُنا بقصَّةِ سيدنا إبراهيمَ ليُرقِّقَ بها قلوبَ هؤلاءِ المشركين[3].

دلالةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾:

تبكيتُ المشركينَ وبيانُ فسادِ عقائدِهم بِذِكْرِ حالِ جدِّهم الَّذي يدَّعون اتِّباعَهُ

أفادتِ (الواو) العطفَ في ذكرِ احتجاجِ إبراهيمَ على أبيهِ وقومِه بعد ذكرِ الاحتجاجِ على مُشركي العرب في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّة بمضمرٍ خُوطِبَ به النَّبيُّ ﷺ معطوفٌ على ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾، أي: واذكر لهم بعد ما أنكرتَ عليهم عبادةَ ما لا يقدرُ على نفعٍ أو ضرٍّ، وحقَّقتَ أنَّ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/561، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 8/412.
(2) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/29.
(3) الشَّعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3735.

الهدى هو هدى الله، ونبَّهتَهم أنِّي أنا الَّذي خلقتُهم، وخلقتُ جميعَ ما يُشاهِدون مِن الجواهرِ والأعراضِ، فإنْ تَنبَّهوا؛ فهو حظُّهم، وإلَّا فاذْكُرْ لهم مُحاجَّةَ خليلِنا إبراهيمَ [1] عليه السلام، وقتَ قولِ إبراهيمَ الذي يدَّعون أنَّهم على مِلَّتِه موبِّخًا لهم على عبادة الأصنام؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُبَكِّتُهم، وينادي بفساد طريقتِهم[2].

دلالةُ الإيجازِ بالحذفِ في ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾:

التَّذكيرُ بحالِ إبراهيمَ لتظلَّ مسيرةُ دعوته متجدّدة في الأذهان

العاملُ في ﴿وَإِذْ﴾ فعلٌ مُضمرٌ، تقديرهُ: واذكر أو قُصَّ[3]، حُذِفَ الفعلُ وفاعلُهُ (اذْكُرْ)، أي: اذكر أنتَ، وتقديرُ الفعلِ يُومئُ إلى تجدُّدِ هذا التَّذكيرِ، وحِكمةُ التَّذكيرِ بوقتِه التَّنبيهُ على أنَّ هذا لم يَزلْ ثابتًا مُقرَّرًا على ألْسنةِ جميعِ الأنبياءِ في جميعِ الدُّهور[4]، كما أنَّ توجيهَ الأمرِ بالذِّكر إلى الوقت - دونَ ما وقعَ فيه منَ الحوادث مع أنَّها المقصودةُ - للمبالغةِ في إيجاب ذكرِها[5]، وما دُمتَ تَذكرُ هذا - أيُّها النَّبيُّ الكريم - ففي التَّذكرة تسليةٌ لك عمَّا يُصيبُك في أمر الدَّعوة[6].

نكتةُ تعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالعلَميَّةِ:

ذِكْرُ ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ وهو المسند هُنا، وهو عَلَمُ شخصٍ على النَّبي الكريم أبِي الأنبياءِ خليلِ الله عليه السلام والتَّصريحُ باسمه العَلَم دون اللَّقب أو الوصفِ، لإحضارِه في ذهنِ السَّامع ابتداءً باسمٍ يختصُّ به[7].

ذكـرُ إبراهيم باسمه العلَم إحضارٌ له في الأذهان

سرُّ العُدولِ عنِ النِّداءِ إلى القولِ:

عدلَ القرآنُ الكريم عنِ النِّداءِ إلى القول؛ لأنَّه سبق النِّداءُ في محاورة إبراهيمَ عليه السلام لأبيه في سورة مريمَ في مرَّاتٍ عديدة، بدءًا من

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/156.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/310.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/156.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.
(6) الشَّعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3732.
(7) عبد المتعال الصَّعيديُّ، بغية الإيضاح: 1/78، وابن عبد الكافي، عروس الأفراح: 1/168.

مـقـامُ الـدَّعـوةِ مقدَّمٌ على مقامِ الأُبوَّةِ

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [مريم: 42] في محاورةٍ طويلةٍ بينهما، كان النِّداءُ الندِيُّ عنوانَها، ومع ذلك لم يستجب أبوهُ لهذهِ الدَّعوة، فما كان من سيِّدنا إبراهيم إلا أن غيَّر أسلوبَه في الدَّعوة، فكان القولُ الَّذي يحملُ شدَّةً في غير عنفٍ، وقوَّةً في غير قسوةٍ؛ لأنَّ دعوةَ اللّه هي الهدفُ الأعلى، وهذا هو المناسبُ لهذه الحلقةِ في قصَّة سيّدنا إبراهيمَ؛ لأنَّها مبنيَّةٌ على مجاراة الخصمِ لإبطال شبهتِه، وحتَّى لا يتوهَّم متوهِّمٌ بوجود شائبةٍ في عقيدة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام بسبب ما سيصدرُ عنه بعد ذلك من أقاويلَ يُجاري بها خصومَه لإبطالِ شُبهِهم ومزاعمِهم؛ فكان هذا القولُ الصَّريحُ الَّذي يدلُّ على عُلوِّ صوتِ الحقِّ في مواجهةِ الباطلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ دون والدِهِ:

شـمـولُ إرادةِ الأبِ المـبـاشـرِ وغيرِهِ منَ الآباء

اختلف المفسِّرون في بيان معنى (الأب) المقصودِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾، هل هو والدُ إبراهيمَ المباشرُ أم عمُّه؟ على قولين مشهورين لأهل العلم، ولكلٍّ وجهُهُ وقوَّتُهُ؛ لأنَّ الأبَ يمكنُ أن يكونَ الوالدَ المباشرَ، ويمكنُ أن يكون الجدَّ أو العمَّ، فقد أُطْلِقَ الأبُ في القرآن على الجدِّ، وإن علا، كقول يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38]، فيعقوبُ هو الوالدُ، وإسحاقُ هو الجدُّ، وإبراهيمُ هو والدُ الجدِّ، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيد، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78][1]، ويُطلق أيضًا على العمِّ، كقول أبناء يعقوب ليعقوب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، ومعلوم أنَّ إسماعيل عليه السلام هو العمُّ المباشر لأبيهم يعقوبَ عليه السلام، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ الشَّاملُ لمعاني التَّفسير مُرتبطٌ باتِّساع الأصل اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ هذه المعاني.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

احـترامُ القـرآنِ لـلأبـوَّة، ولـو شَـانَـها اختلافٌ في الدِّين

دلَّتِ الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَبِيهِ﴾ مع أنَّه كافرٌ على أنَّ الإسلامَ يحترمُ الأبوَّة مع اختلاف الدِّين، فإبراهيمُ أبو الأنبياء كان حنيفًا مسلمًا، وأبوه كافرٌ، وهذا يدلِّلُ على أنَّ حقوقَ الأبوَّة لا تسقطُ بالكفر، يؤكِّدُ ذلك ما ذكره القرآنُ الكريم في سورة لقمانَ عنِ الإحسان إلى الوالدين بقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15]، فأُمِرَ الابنُ بصحبة والديه المشركَيْن بالمعروف.

سرُّ انفرادِ موضعِ الأنعامِ بذكرِ ﴿ءَازَرَ﴾ دونَ بقيَّةِ المواضعِ:

جاء ذكرُه في أوَّلِ موضعٍ ليُحملَ مـا جـاء في المواضع الأخرى عليه

الَّذي يقرأ قصَّةَ سيِّدِنا إبراهيمَ ﷺ يجد أنَّها وردتْ في سورٍ عديدةٍ في القرآن الكريم منها: (سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة هود، وسورة مريم، وسورة الحج، وسورة العنكبوت، وسورة الزخرف، وسورة الذاريات، وسورة الممتحنة)، وكلُّ سورةٍ من هذه السُّور تناولتْ جانبًا من قصَّتِهِ ﷺ، والَّذي يعنينا في هذا المقام ما يتعلَّق بمعالم دعوته، وما اتَّبعه من أساليبَ في عرضِها منَ الحوارِ والمحاجّةِ مع أبيه وقومه.

ولمَّا كانت سورةُ الأنعام هي السُّورةَ الأولى في ترتيب المصحفِ الَّتي تناولت هذا الجانبَ في دعوته ﷺ لأبيه وقومه؛ ناسب هنا الإتيانُ بالتّعريف بأبيه ﴿ءَازَرَ﴾، وليُحملَ ما جاء بعد ذلك من عدمِ ذكرِ اسم آزرَ فيهِ على الموضعِ الأول، وهو في سورة الأنعام.

دلالةُ لفظ ﴿ءَازَرَ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

مراعاةُ المُناسبةِ بين اسـمِ (آزر) وحالِهِ

اختلف المفسِّرون في معنى كلمة ﴿ءَازَرَ﴾: هل هي اسمٌ لأبي إبراهيمَ حقيقةً، أم هي لقبٌ عليه أو وصفٌ له؟

ومن جُملة ما ذكرُوه أنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ كان اسمَ صَنَمٍ يعبدُه والِدُ

إبراهيم، وإنَّما سَمَّاهُ اللّه بهذا الاسم لوجْهَيْنِ: **أَحدُهُمَا**: أَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ مُخْتَصًّا بِعِبادَتِهِ؛ وَمَنْ بالَغَ في محبَّةِ أحدٍ فقد يَجْعَلُ اسْمَ المَحبوبِ اسْمًا لِلمُحبِّ[1]، فيكونُ هذا من قبيل المجاز المُرسلِ بعلاقة المجاورةِ.

الثَّاني: أَنَّه من قبيل إيجاز الحذف: أَن يكونَ المُرادُ عابِدَ آزَرَ، فَحُذِفَ المُضَافُ، وَأُقِيمَ المُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ[2].

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿ءَازَرَ﴾:

اختلفَ القُرَّاءُ في لفظة ﴿ءَازَرَ﴾: فَقَرَأَ يَعْقُوبُ بِرَفْعِ الرَّاءِ، وَقَرأَ البَاقُونَ بِنَصْبِهَا[3]، ومن قرأ بالنَّصب على أنَّه عطف بيان أو بدل لقوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ فَأُبْدِلَ لِبَيانِ إرادَةِ الأَبِ حَقِيقَةً[4].

بيـانُ إرادةِ الأبِ على وجهِ الحقيقةِ

ومن قرأ بالضَّمِّ على النِّداء، والنِّداءُ بالاسم هنا فيه زجرٌ للمُنادَى، وذلك لائقٌ به؛ لأنَّه كان مُصِرًّا على كفرِه، فَحَسُنَ أن يُخاطَبَ بالغِلْظة زجرًا له عن ذلك القبيح، بخلاف قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 142] حيثُ قُرِئَ ﴿هَٰرُونَ﴾ بالنَّصب، وما قُرِئَ البتَّةَ بالضَّم، فقد كان موسى عليه السلام يستخلفُ هارون على قومه، وهو مقامُ تشريفٍ، فما كان الاستخفافُ لائقًا بذلك الموضعِ[5].

دلالةُ الاستفهامِ في قوله ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾:

الإنكارُ والتَّوبيخُ المنبِّهان على فسادِ معتقدِ آزرَ وقومِه

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ[6]، إذ قال عليه السلام لأبيه مُنكرًا عليه منبِّهًا له على ظهور فسادِ ما هو مرتكبُه: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، فالهمزةُ هنا للإنكار[7].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/32.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/32.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/259.
(4) السُّيوطيُّ، الإتقان: 3/238، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/156.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/34.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/312.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562، والقرطبيُّ، تفسير القرطبيُّ: 7/23.

وقدْ نبَّه بهذا الإنكارِ على أنَّ مَعرفةَ بُطلانِ ما هو مُتدَيِّنٌ به لا يحتاجُ إلى كثيرِ تأمُّلٍ[1]، بل هو أمرٌ بديهيٌّ أو قريبٌ منه، فإنَّهم يُباشِرونَ أمْرها بجميعِ جوانبِهم، ويَعلَمون أنَّها مصنوعةٌ، وليستْ بصانعةٍ، وكثرتُها تدلُّ على بُطلانِ إلهيَّتِها بما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22][2].

وفيه أيضًا دليلٌ على الإنكار على من أُمِرَ الإنسانُ بإكرامه؛ إذا لم يكن على طريقةٍ مستقيمةٍ، وعلى البداءةِ بمنْ يقرب من الإنسانِ كما قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعراء: 214][3].

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ (الِاتِّخَاذِ):

الاتِّخاذُ دالٌّ على التَّكلُّفِ والمبالغةِ في تحصيلِ الفعلِ

في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ عبَّرَ بصيغةِ الافتعالِ في (تتَّخِذ) - وهو افتعالٌ منَ الأخْذِ - للدَّلالة على التكلُّفِ للمبالغةِ في تَحصيل الفِعلِ، وأنَّ ذلك مُصطنَعٌ مُفتعَلٌ، وأنَّ الأصنامَ ليست أهلًا للإلهيَّة، وفي ذلك تعريضٌ بسخافةِ عَقْلِه، أن يجعَلَ إلهَه شيئًا هو صَنَعَه[4]، فالظَّاهرُ أنَّ (تَتَّخِذ) يتعدَّى إلى مفعولين، وجوَّزوا أن يكون بمعنى (أتعمل وتصنع)؛ لأنَّه كان ينحتُها ويعملُها[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ دونَ العبادةِ:

المقصودُ الأصليُّ من عبادتِهم أنَّها كانت موجَّهةً أصالةً إلى الكواكِبِ

في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باتِّخاذ الأصنام دونَ العبادةِ، مع أنَّ القومَ اشتغلوا بعبادتِها وتعظيمِها؛ لأنَّهم لمَّا رأوا أنَّ الكواكبَ قد تغيبُ عنِ الأبصارِ في أكثر الأوقاتِ؛ اتَّخذوا لكلِّ كوكبٍ صنمًا منَ الجوهر المنسوبِ إليه، واتَّخذوا صنمَ الشَّمسِ مِنَ الذَّهب، وزيَّنوهُ بالأحجارِ المنسوبة إلى الشَّمس، وهي الياقوتُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/157.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/231، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/312.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/313، وطَنطاوي، الوسيط: 5/108.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.

والألماس، واتَّخذوا صنمَ القمر منَ الفضَّة وعلى هذا القياس، ثُمَّ أقبلوا على عبادةِ هذه الأصنام، وغرضُهم من عبادةِ هذه الأصنام هو عبادةُ تلكَ الكواكب والتَّقرُّبُ إليها، وعند هذا البحثِ يظهر أنَّ المقصودَ الأصليَّ من عبادة هذه الأصنام هو عبادةُ الكواكب[1].

سِرُّ جمعِ الأصنامِ في قولهِ تعالى: ﴿أَصْنَامًا﴾:

بيانُ كثرةِ معبوداتِهم الباطلةِ، وتقبيحُ أفعالِهم

في ذكرِهِ ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ بالجمع تقبيحٌ عظيمٌ لفعلهم واتِّخاذهم جمعًا آلهةً[2]، فإيرادُ صيغةِ الجمع باعتبار الوقوعِ[3]، فهي أصنامٌ كثيرة، وكثرتُها تدلُّ على بطلانِ إلهيَّتها[4]، ذلك أنَّ هذه الأصنامَ لو حَصَلَت لها قدرةٌ على الخيرِ والشَّرِّ؛ لكانَ الصَّنمُ الواحدُ كافيًا، فلمَّا لم يكُنِ الواحدُ كافيًا؛ دلَّ ذلك على أنَّها وإن كثُرت؛ فلا نَفْعَ فيها البتَّةَ[5].

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ في ﴿ءَالِهَةً﴾ دونَ الإفرادِ:

بطلانُ عبادةِ الآلهة أمرٌ مُقَرَّرٌ في الوجدان، وثابتٌ في الأذهان

عبَّرَ بالجمْعِ في قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾ دونَ الإفرادِ (إلهًا) ليدلَّ على بطلانِ عبادتها؛ لأنَّ القولَ بكثرة الآلهة يُبطلهُ العقلُ؛ لأنَّ كثرة الآلهةِ تتنازعُ في السِّيادة والسلطة، يؤكِّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

بلاغةُ التَّعريضِ بمشركي العربِ:

فضحُ مُشركي العربِ ببيانِ مُخالفتِهم لأبيهم الذي ينتسبونَ إليهِ

قوله تعالى ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ احتجاجٌ على مشركي العربِ بأحوالِ إبراهيمَ ومحاجَّته لأبيه وقومه؛ لأنَّهم كانوا يُعَظِّمون إبراهيمَ عليه السلام ويعترفون بفضلهِ، فلا جرمَ ذُكِرَ إنكارُ إبراهيم عليه السلام على أبيهِ وقومهِ في معرض الاحتجاجِ على المشركين[6]، والتَّعريض بهم في مُخالفتهم لأبيهم الذي ينتسبونَ إليه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/30.
(2) أبو حيَّان البحر المحيط: 4/562.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151، والآلوسي، روح المعاني: 4/184.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/157.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/34.
(6) الخازن، لباب التَّأويل: 2/125 - 126.

دلالةُ التَّنْكيرِ في ﴿أَصْنَامًا﴾:

الإشـــارةُ إلى كثرتِها من غيرِ عددٍ معيَّنٍ

دلَّ التَّنكيرُ - بدلًا من أن يقولَ: أتَّتخذ الأصنامَ آلهةً - على كثرتِها، وعلى حقارةِ شأنِها؛ لأنَّ كثرتَها أنبأتْ عن ضعفِها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ إنسانٍ منهم يمكنُ أن يتَّخذَ صنمًا، فلا حدَّ لعدد الأصنامِ؛ بخلافِ المعرفةِ (الأصنام)، فإنَّها تشيرُ إلى عددٍ معيَّنٍ منَ الأصنامِ معروفٍ لديهم لا يصحُّ تجاوزُه، وهذا على غير الواقعِ الموجودِ آنذاك.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأصنامِ دونَ الأوثانِ:

الإشارةُ إلى أنَّها شيءٌ مصنوعٌ مبالَغٌ في نحتِهِ وتصويرِهِ

النَّاظرُ في قصَّة سيِّدنا إبراهيم ﷺ في دعوتِهِ لقومِهِ إلى توحيدِ اللهِ وترك الأصنامِ والأوثانِ، يجدُ استعمالَ لفظِ الأصنامِ والأوثانِ، ففي سورة العنكبوتِ مثلًا يقصُّ القرآن علينا موقفَ سيِّدنا إبراهيمَ عندما دعا قومَهُ إلى عبادةِ اللهِ، وحذَّرهم من عبادة الأوثانِ، فقال لهم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 25]، فذكر لفظ (الأوثان)، وفي موضعٍ آخر يعيبُ عليهم عبادةَ الأصنامِ، فردُّوا عليه قائلين: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: 71]، وعلى هذا نلاحظُ استعمالَ لفظِ الأصنامِ مرَّةً والأوثانِ مرَّةً، ففي المواطنِ التي استُعملت فيها كلمةُ (الأصنام) يشيرُ السِّياقُ إلى أنَّها شيءٌ مصنوعٌ مبالَغٌ في نحتِهِ وتصويرِه، ومتكلَّفٌ في إيجادِه، بخلاف (الوثن) فهو مجرَّدُ حجرٍ لا صورةَ له، ولا نحتَ فيه، وهذا ما كانَ في موضعِ سورةِ الأنعامِ من النَّحت والصِّناعةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ءَالِهَةً﴾ دونَ الأربابِ:

الإنـــكـــارُ على قومِ إبراهيمَ في شِركهم تعريضٌ بمشركي قريشٍ

عبَّرَ بالآلهةِ دونَ الأربابِ؛ لأنَّ هذه الأصنامَ المصنوعةَ مربوبةٌ ليس لها من صفاتِ الرُّبوبيَّةِ شيءٌ؛ لأنَّ الرَّبَّ يُعَبَّر به عنِ الخالقِ المالكِ المربِّي لمخلوقاتِهِ بنعمِهِ الَّذي ينمِّيهما أجسامًا وعقولًا[1].

(1) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 28/276.

والمشركون أغلبُ شِركهم في الألوهيَّة دون الرُّبوبية؛ لعلمِهم أنَّ هذه الآلهةَ المعبودةَ لا تملكُ الخلقَ والملك والتَّدبيرَ، فلا تصلحُ أن تكونَ أربابًا، وإنَّما عبدوها باتِّخاذهم لها وسائلَ ووسائطَ تُقرِّبُهم إلى الله زلفى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3].

سِرُّ تقديمِ إبطالِ أُلوهيَّةِ الأصنامِ على رُبوبيَّةِ الكواكبِ:

التَّرقّي في إبطالِ الخفيِّ إلى الأخفى

تقديمُ بُطلانِ إلاهيَّةِ الأصنامِ على رُبوبيَّةِ الكواكبِ جاء من باب التَّرقّي منَ الخفيِّ إلى الأخفى، وقيل: إنَّ القومَ كانوا يعبدون الكواكبَ، فاتَّخذوا لكلِّ كوكبٍ صنمًا منَ المعادن المنسوبةِ إليهِ، كالذَّهب للشَّمس، والفضَّةِ للقمر؛ ليتقرَّبوا إليها، فأنكرَ أوَّلًا عبادتَهم للأصنام بحسب الظَّاهر، ثُمَّ أبطلَ مَنْشَأَها، وما نُسبت إليه منَ الكواكبِ بعدم استحقاقِها لذلك أيضًا[1].

سرُّ بدء إبراهيمَ بدعوة أبيهِ قبل دعوة قومِهِ:

الأَقْرَبُونَ أَولَى بالنُّصْحِ والإرشَادِ والإِحْسَانِ

يجدُ القارئُ لهذهِ الآياتِ في سورةِ الأنعام: أنَّ سيِّدنا إبراهيمَ وجَّه دعوتَه لأبيهِ أوَّلًا قبْلَ قومِه، كما في سُوَرِ الأنبياء والشّعراء والصّافّات؛ وذلك لأنَّ النُّصحَ وسائرَ الأفعال الجميلة يُبْدأُ فيها بالأقربِ، وهذا ما فعله سيِّدنا إبراهيمُ عليه السلام حيث بدأ بأبيه، كما قال ربُّنا في أمر الدَّعوة مع الرَّسول ﷺ فقال له: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الدّاعيةَ يقوم بالإنكارِ على أقرب الأقربين، إذا كان على غير طريقةٍ مستقيمةٍ، ويعَدُّ ذلك من باب الإكرام[2].

سببُ فصلِ قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

الجمعُ بين الإنكارِ بالمفهومِ والإنكارِ بالمنطوقِ

فُصلتْ جملة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنَّها جملةٌ مُبَيِّنةٌ للإنكارِ في جملة: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾[3]، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/188.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/164.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/313.

حكمٌ تولَّدَ عنِ الاستفهامِ السَّابق وتعليلٌ للإنكار والتَّوبيخ[1]، فجيءَ بالفصل لاختلاف الجُملتين خبرًا وإنشاءً مع الارتباطِ القويِّ بينهما في المعنى لشبَهِ كَمال الاتِّصال، وذلك ليجمعَ بين الإنكارِ بالمفهوم والإنكارِ بالمنطوق.

نكتةُ التَّأكيدِ في قولِهِ تعالى ﴿إِنِّيٓ﴾:

تأكيدُ وقوعِ آزر وقومه في ضلالٍ مبين في الاعتقاد

أكَّدَ الإخبارَ بحرفِ التَّأكيدِ في ﴿إِنِّيٓ﴾؛ لِمَا يتضمَّنه ذلك الإخبارُ من كونِ ضلالهم بيِّنًا، وذلك ممَّا يُنكره المخاطَبُ؛ ولأنَّ المخاطبَ لَمَّا لم يكن قد سمع الإنكارَ عليه في اعتقادِهِ قبْلَ ذلك؛ يَحسبُ نفسَه على هدًى، ولا يحسبُ أنَّ أحدًا يُنكر عليه ما هو فيه، ويظنُّ أنَّ إنكارَ ابنه عليه لا يبلغُ به إلى حَدّ أن يراهُ وقومَهُ في ضلالٍ مبين، فقد يتأوَّلُه بأنَّه رام منه ما هو أولَى[2].

دلالةُ فعلِ الرُّؤيةِ في قولِهِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾:

استعمالُ اللَّفظِ المشتركِ في مَعْنَيَيْهِ: الإبصارِ والاعتبارِ

الرُّؤيةُ إمَّا علميَّةٌ؛ فالظَّرفُ مفعولُها الثَّاني، وإمَّا بصَريَّةٌ؛ فهو حالٌ منَ المفعول[3]، و﴿أَرَىٰكَ﴾ في هذا الموضع يشتركُ فيها البصرُ والقلبُ؛ لأنَّها رؤيةُ قلبٍ ومعرفتُه، وهي متركِّبةٌ على رؤية بصرٍ[4]، فهو من دلالةِ استعمالِ اللَّفظ المشترك في مَعْنَيَيْهِ.

وممَّا يُذكرُ في هذا المقامِ أنَّ التَّعبيرَ بالرُّؤية فيه إشارةٌ إلى كمال اليقين المتمثِّلِ عن طريق المشاهَدةِ، إلى أنَّ ضلالَ أبيه وقومِه، ظاهرٌ للعَيانِ، وفي قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ أيضًا دليلٌ على هِدايةِ إبراهيمَ وعِصمَتِه[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/151.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/313.
(3) أبوالسُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/311.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.

دلالةُ عطفِ القومِ في ﴿وَقَوْمَكَ﴾ على ضميرِ الخطابِ:

التَّصريحُ بضلالِ أبيـهِ وقـومـه، ولـو تـكـاثَـروا في الضَّلال

في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عَطفَ ﴿وَقَوْمَكَ﴾ على ضَميرِ المخاطَبِ في ﴿أَرَىٰكَ﴾، من غير إعادة الفعل ﴿أَرَىٰكَ﴾، مع العِلم بأنَّ رؤيتَه أباه في ضَلالٍ تَقتضي أنْ يرَى مماثِليه في ضلالٍ أيضًا، وفائدةُ ذلك أنَّ المقامَ مقامُ صراحةٍ، لا يُكتَفَى فيه بدَلالةِ الالتزام، ولِيُنَبِّئَهُ من أوَّلٍ وهْلةٍ على أنَّ موافقةَ جَمْعٍ عظيمٍ إيَّاه على ضَلالِه لا تُعَضِّدُ دِينَه، ولا تُشَكِّك مَن يُنْكِرُ عليه ما هو فيه[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أباهُ قائدُهم في ذلك، وهم أتباعٌ له.

دلالةُ إضافةِ القومِ إلى ضميرِ الخطابِ:

تَبَرُّؤُ إبراهيم من شِرك أبيه ومن شِركِ قومه

دلَّت هذه الإضافةُ إلى أبيهِ دون أن يقولَ: (وقومي)؛ للإشارةِ إلى تبرُّئِه منهم؛ لشركِهم، فلم ينسبْهم إليه، وفي هذا دليلٌ على تَحقُّقِ إيمانِ سيِّدنا إبراهيم وإنكارِه على قومه.

نوعُ الظّرفيّة في قوله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

بيانُ تمكُّنِهم في الضَّلال البَواحِ وانغماسِهم فيهِ

جيءَ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ المستعارِ لِشدَّةِ التَّلَبُّسِ بالوصفِ، دون (على)؛ تَمثيلًا لحالِهم في إحاطة الضَّلالِ بهم بحالِ الشَّيءِ في ظَرْفٍ محيطٍ به لا يتركهُ يُفارقُه، ولا يتطلَّعُ منه على خلاف ما هو فيه من ضيقٍ يُلازِمُهُ، فأخبرَ أنَّه وقومَه في ضلالٍ، وجعلَهم مَظروفين للضَّلال، وهو أبلغُ من وصفهم بالضَّلالِ، كأنَّ الضَّلالَ صار ظرفًا لهم[2].

إذًا فحَرْفُ الظَّرفيَّة، يشيرُ إلى تَمَكُّنِهم مِنَ الضَّلالِ وانْغماسهم فيهِ لإفَادَةِ أَنَّهُ ضَلَالٌ بَوَاحٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ، مؤكَّدٌ بِوَصْفِهِ بـ ﴿مُّبِينٖ﴾[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/314.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/562.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/95، 22/193.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّلالِ عنِ الكفرِ والشِّركِ:

عمـومُ انحـرافِ قـومِ إبـراهيـمَ ﷺ عـنِ المنهجِ المستقيمِ

عبَّرَ بالضَّلالِ؛ لأنَّهُ أعمُّ منَ الكفرِ والشِّركِ، حيثُ يُطلَقُ عنِ العدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ويقالُ ذلك لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، وهذا ما وقع فيه قومُ إبراهيمَ ﷺ مع أبيه[1].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

تـهـويـلُ ضـلالِ قـومِ إبـراهيـمَ وتشنيعُهُ

قولهُ: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: عظيمٍ عن الحقِّ[2]، فالتَّنكيرُ للتَّعظيمِ وللتَّهويلِ، فهو ضلالٌ هائلٌ لا حدَّ له، ويجوزُ أن يكونَ لبيانِ النَّوعيةِ، أي: إنَّهُ نوعٌ خاصٌّ منَ الضَّلالِ ليس من جنسِ الضَّلالِ المعهودِ، ولا تعارُضَ بين الدِّلالتين؛ لأنَّهما يَؤولانِ إلى المعنى المقصودِ في شدَّةِ الضَّلال.

فائدةُ وصفِ الضَّلالِ بالمُبِينِ:

بـيـانُ شِـدَّةِ عَمايتِهم؛ مع وُضـوحِ الحـقِّ وجلائِهِ

وَصْفُ الضَّلال بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾ دون (البعيد) أو ما يُقاربه دليلٌ على شدَّةِ فسادِ عقولهم، حيثُ لم يتفطَّنوا لضلالهم مع أنَّه كالواضح المشاهَدِ المرئيِّ[3].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الفَاعِلِ ﴿مُّبِينٍ﴾:

قـومُ إبـراهيـمَ كانوا منغمسين في ضـلالٍ مبين وشركٍ بيّنٍ جليّ

التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُّبِينٍ﴾ للمُبالغةِ في وضوحِ الضَّلالِ، أي: الضَّلالُ مُبيِّنٌ لنفسهِ مُوَضِّحٌ لها؛ إذ كيفَ تصنعُ بيديك حجرًا، ثُمَّ تعبدُه؟[4] فهو ضلالٌ بيِّنٌ كونُه ضلالًا لا اشتباهَ فيه أصلًا[5].

وممَّا يُذكر في هذا المقام أنَّه إذا كان مُبيِّنًا لضلالهم وغيِّهم، فبالتَّأكيدِ هو بَيِّنٌ في نفسه من باب أولى.

---

(1) الراغب، المفردات: (ضلَّ).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/185.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/314، وطنطاوي، الوسيط: 5/108.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2560.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.

مصارحةُ إبراهيمَ عليه السلام أباهُ وقومه:

الـدَّلالـةُ على هدايةِ إبراهيمَ عليه السلام وعصمتِهِ

إنكارُ إبراهيمَ على أبيه وقومه في قوله ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وتأكيده على ضلالهم المبين، أدلُّ دليلٍ على هدايةِ إبراهيمَ وعِصْمَتِهِ عليه السلام، ممَّا يوهم ظاهرُ قولِهِ تعالى بعد ذلك: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ من نسبة ذلك إليه على أنَّه أخبر عن نفسِهِ، وإنَّما قال ذلك على سبيلِ التَّنزُّل مع الخصم، وتقرير ما يُبنى عليه من استحالة أن يكونَ الإلهُ مُتَّصفًا بصفاتِ الحدوثِ منَ الجسمانيَّة، وقَبولِه التَّغيُّراتِ منَ البزوغ والأفول ونحوِها[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ دون (ضالّين):

الظَّرفيَّةُ أبلغُ منَ الحاليَّة

عبَّرَ بكونهم في الضَّلالِ دونَ (ضالين)؛ لأنَّهُ أبلغُ من وصفِهم به، فكأنَّ الضَّلالَ صارَ ظرفًا لهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوالد والأب:

الـوالـدُ خـاصٌّ بـالأبِ المُباشرِ، والأبُ أعمُّ

الوالدُ في اللُّغة هو الأبُ المُباشر الذي أنجبَ، فالوالدُ لا يُطلقُ إلَّا على من أولدَكَ من غير واسطةٍ[2]، لذلك حينما يقول ﷺ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ نعلم أنَّ كلمة (وَالِدَيْكَ) هُنا هُما الأبُ والأمُّ[3]، أي: الأبوان المُباشران، أمَّا الأبُ؛ فقد يكون الأبَ المُباشرَ، وقد يُطلق على العمِّ والجدِّ[4]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، بل قد يُطلق على الجدِّ البعيد، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78][5]، فيُطلق الأبُ على الجَدِّ وإن علا، فالوالدُ خاصٌّ، والأبُ عامٌّ، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ مُرتبطٌ باتِّساع الأصلِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(4) الراغب، المفردات: (أبا)، والزَّبيدي، تاج العروس: (أبى).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.

اللُّغوي لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ ما كان سببًا في وجود الشَّيءِ أو رعايتِه، أو إصلاحِهِ، أو ظُهورِه[1].

وممَّا يُذكرُ في الفرق بينهما: أنَّ الوالدَ لم يردْ مجموعًا في القرآن الكريم؛ بخلاف الأب، فقد وردَ مجموعًا كما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ الآية، وفي هذا دليلٌ على أنَّ لفظَ الوالدِ مقصورٌ على الأبِ المباشرِ دون غيره، الذي هو السببُ المباشرُ في وجود الابنِ.

الأخْذ والاتِّخاذ:

الأخْذُ مَصْدر (أَخَذْتُ بيدي)، ويُستعارُ، فيقال: أخذه بلسانِه؛ إذا تَكَلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73]، وأصلُه في العربيَّة: حَوْزُ الشَّيء وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ[2]، والاتِّخاذ: أخْذُ الشَّيء لأمر يَسْتَمِرُّ فيه، فيُستعمَلُ بمعنى جَعَلَ[3]، مثلَ الدَّارِ يتَّخذها مَسكنًا، ويكونُ الاتِّخاذ في التَّسمية والحُكْم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3] أي: سمَّوها بذلك، وحكموا لها به[4].

الأخـــذُ: حَـــوْزُ الشَّيء وجمعُه، والاتِّخاذُ: جَعْلُ الـــشَّيءِ لأمـرٍ والاستمرارُ عليه والـتّـكـلُّـفُ في الحصول عليه

وممَّا يُذكرُ في الفرقِ بينهما: أنَّ الاتِّخاذ على صيغة الافتعالِ، وهي دالَّةٌ على التَّكلُّف للمبالغة في تحصيل الفعل، وهذا المناسبُ لاستعمالِ القرآن في فعلِهم مع الأصنام.

الصَّنم والوَثَن:

الصَّنمُ: مَا كَانَ مُصَوَّرًا من حجرٍ أو نحاسٍ أو فضَّةٍ أو نَحْو ذَلِك، والوثنُ: مَا كَانَ من غير صورةٍ[5].

الوثنُ أعـمُّ منَ الصّنم

(1) الرَّاغب، المفردات: (أبا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير: (ءخذ).
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 29.
(5) ابن عزيز السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 66.

فمَا اتَّخَذَهُ النَّاس من آلهةٍ، فكانَ من غير صُورةٍ؛ فَهُوَ وَثَنٌ، فَإِذَا كَانَ لَهُ صُورَةٌ؛ فَهُوَ صَنَمٌ[1].

وفَرَّق بَيْنَهُما هِشامٌ الكَلْبِيُّ في كِتابِ الأَصْنام: بِأَنَّ المَعْمُولَ مِنَ الخَشَبِ أَو الذَّهَبِ والفِضَّة أَو غَيْرِها من جَوَاهِرِ الأَرْضِ صَنَمٌ، وَإِذا كَانَ من حِجارةٍ؛ فَهُوَ وَثَنٌ[2].

وَقيل: الصَّنمُ: مَا كَانَ على صُورَة خِلْقَةِ البَشَرِ خاصَّةً، والوَثَنُ: مَا كَانَ على غَيْرِها[3].

ويُطْلَقُ الوَثَنُ على الصَّلِيبِ، وعلى القبرِ إذا عُبِدَ من دون اللّهِ، وعلى كلِّ معبودٍ من دون اللّه؛ فالوثنُ أعمُّ سواءٌ كان شيئًا مجسَّدًا على صورة أو غير ذلك، وقد جاء في القرآن ما يدلُّ على هذا، فإنَّ في قصة إبراهيم: مرةً سُمِّيَت أصنامًا، ومرةً سمِّيت أوثانًا، قال تعالى ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 25]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشُّعراء: 71] فهذا يدلُّ على أنَّها تُطلق على هذا مرَّةً، وتُطلق على هذا مرَّةً أخرى.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صنم).
(2) ابن بشر الكلبي، كتاب الأصنام، ص: 53.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (صنم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»